العنوان: أبعاد الحب النفسية من خلال التجربة الذاتية لابن حزم
المصدر: المجلة العربية للعلوم الإنسانية
الناشر: جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي
المؤلف الرئيسي: أحمد، الشفيع الماحي
المجلد/العدد: مج 16 , ع 63
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 1998
الشهر: صيف
الصفحات: 110 - 133
DOI: 10.34120/0117-016-063-003
رقم MD: 11483
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
اللغة: Arabic
قواعد المعلومات: HumanIndex
مواضيع: العشق، ابن حزم الظاهري، الحب، العواطف، مراتب الحب، علم النفس ، الوجد، الاضطرابات النفسية، الانفعالات النفسية، التحليل النفسي، كتاب طوق الحمامة، الاخلاق
رابط: http://search.mandumah.com/Record/11483

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA
أحمد، الشفيع الماحي. (1998). أبعاد الحب النفسية من خلال التجربة الذاتية لابن حزم.المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج 16 , ع 63 .133 - 110 ، مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/11483

إسلوب MLA
أحمد، الشفيع الماحي. "أبعاد الحب النفسية من خلال التجربة الذاتية لابن حزم."المجلة العربية للعلوم الإنسانيةمج 16 , ع 63 (1998): 110 - 133. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/11483

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

أبعاد الحبّ النفسيّة من خلال التجربة الذاتيّة لابن حزم

الشفيع الماحي أحمد*

* حصل على الدكتوراه في العقيدة الإسلامية من جامعة الخرطوم عام 1990 .
يعمل حاليًا أستاذًا مساعدًا في كلية التربية بجامعة الملك سعود - الرياض.

AJH
98

الملخص

عرف الحبّ كحالة نفسيّة تستمدّ معينها من المجانسة والمشاكلة بين نفسين، وتستند في مجملها على الذهن فتنطبع فيه صورة لمحبوب تحتلّ في خيال المحبّ مركزًا مرموقًا، وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أبعاد الحبّ النفسيّة المختلفة معتمدة في الأصل على تجربة ابن حزم وخبرته الذاتية.

وتحقيقًا لهذه الغاية قُسّمت الدراسة إلى عدّة موضوعات:

أولاً: بيان مراتب الحبّ حيث أوضحت أن الحب يمرّ بمراحل نفسية يبدأ كميل نفسي، ثم ينقلب الميل إلى مودّة، فخلّة لينتهي كعشق.

ثانيًا: مظاهر الحبّ، وهو ما يطفو على سطح الوجود الخارجي، وقد حصرته الدراسة في مظهرين **أولهما** الانبساط الشديد أو الفرح، **وثانيهما** اضطراب النفس، ورهافة شعورها، وكثرة تقلّبها.

ثالثًا: الوصل وهو التقاء المحبين وعلى فترة زمانية معيّنة، وهو من خصوصيّات المحبين، قد يوصف ولكن لا يدرك حقيقته إلاّ من جرّبه.

رابعًا: الوفاء وهو ثبات المحبّ على حبّه وإخلاصه فيه.

وأخيراً تطرّقت الدراسة إلى الفراق حيث بيّنت أن افتراق المحبين إما أن يكون عن إرادة حرّة ولدوافع محتومة، وإما أن يكون بغير رغبة، موضّحة في الحالتين آثارهما النفسية.

مدخـــــل

عولج الحب كانفعال بشري وعاطفة إنسانية لها خصوصيتها المميزة من زوايا عديدة، وتناولته بالبحث والتحليل ومن منطلق ارتباطه الشديد بالنفس علوم متعددة كعلم النفس والفلسفة والأخلاق والاجتماع والجنس، وكتب فيه الكثير ممن لهم صلة مباشرة أو غير مباشرة بالعلوم الإنسانية، حتى غدا من وفرة الكتابة فيه ظاهرة بشرية يمكن من خلالها ليس فقط معرفة النفس معرفة عميقة، بل أيضًا الارتقاء بها إلى عالم آخر أرحب وأوسع يذوب فيه الشعور بإيقاع حركة الحياة وتقلب أحوالها.

وعالج ابن حزم عاطفة الحب أسوة بغيره من المفكرين، وأخضعه كظاهرة بشرية وعاطفة من أنبل العواطف للبحث والتحليل في جوانبه المختلفة، ولكنه عندما عرض نتائج ما توصل إليه أغفل في عرضه أغلب الآراء والنظريات الفلسفية التي قيلت فيه وصبغته بالصبغة العقلية الجافة، واستند فقط على تجاربه الشخصية وخبرته الذاتية، مضافًا إليها تجارب وخبرات من عايشهم من أهل زمانه، فجاءت أحكامه في الحب مصبوغة بالصبغة الذاتية المحض، بحيث تحول الحب عنده في النهاية إلى خبرة معيشة لا يدرك كنهها أو تعرف حقيقتها إلا بعد مكابدة ومعاناة.

والصفحات التالية تتناول بالعرض والشرح والتحليل ومن واقع التجربة الشخصية لابن حزم عاطفة الحب كما أدركها وخبرها عن معاناة ومعايشة، وكما تحدث عنها في كتابه طوق الحمامة حديثًا أقرب ما يكون إلى الاعتراف الشخصي، مركزين في المقام الأول وبصفة جوهرية على مظاهر الحب وسماته النفسية كالانبساط الزائد عن الحد، وكثرة تقلب أحوال النفس واضطرابها، وأفراح اللقاء وآلام الفراق وغيرها مما ينغرز في النفس انغرازًا لا تمحوه الأيام والليالي، ويثبت ثباتًا لا تزحزحه أهوال الدنيا وابتلاءات الحياة. وهذه المظاهر والسمات هي الأكثر دورانًا وشيوعًا وشهرة في التجربة والخبرة لدى كل محب ومحبوب.

ماهيّة الحبّ

يتضح من قوله تعالى (وهو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) (الأعراف 189) ليس فقط وحدة الأصل الانساني بشقيه الذكر والأنثى،

بل أيضًا اتحاد نفسيهما نوعًا، وامتزاجهما خلقًا وتكوينًا، وبين النفسين من المشاركة والمجانسة والمشابهة ما بين كل اثنين نابعين من مصدر واحد، ثم انفصلا لاحقًا انفصالاً حتمته الضرورة الحياتية البحت، لتحل كل واحدة على انفراد في بدن تؤدي به وظيفة لا تحقق إلا بوجود الأخرى، مما ترتب عليه التباين والاختلاف فيما بينهما في الخلق والصورة والشكل والوظيفة الحياتية.

وكنتيجة طبيعية لهذا الاتصال الوظيفي تحن كل نفس وتشتاق إلى ما يجانسها ويشاكلها، بل وتسعى مجذوبة بالطبع والغريزة سعيًا حثيثًا للاتحاد والاندماج، وذلك لحاجة كل منهما للأخرى حاجة الشبيه إلى ما يشابهه، والمثيل إلى ما يماثله في وحدة الأصل والخلق، ليسكن كل منهما للآخر سكونًا يعيدهما كرة أخرى إلى المنبع نفسه الذي صدرا منه معًا.

واتصال كل منهما بالأخرى بعد انفصالهما لتلك الضرورة الحياتية يتخذ فيه الحنين والاشتياق طابعًا حركيًّا تستدعي كل منهما الأخرى، تمامًا مثلما تستدعي ما لا راحة ولا هدوء ولا سكون إلا بوجوده، فإذا حدث الاتحاد وتم الاندماج حتى صارا كالشيء الواحد «لمع بين الاثنين نور ساطع في عالم الروح يستضيء به بواطن الأعضاء وبواصر العقل، وتهتز لإشراقه طبائع الحياة، ويتصور من ذلك النور خلق خاص بالنفس متصل بجوهرها يسمى الحب»[1].

ولأجل هذا عرف الحب كحالة نفسية تستمد معينها من المجانسة والمشاكلة بين نفسين، أو بتعبير آخر ثمرة طبيعية للانجذاب الطبعي والغريزي بين شبيهين ومتماثلين أصلاً وخلقًا، ولكنها حالة تستند في مجملها إلى الذهن، إذ فيه تنطبع صورة لمحبوب تحتل في مخيلته مركزًا مرموقًا. ثم عقب ذلك تنبثق قوة طاغية مفعمة بالحياة والحيوية تندفع بغية الاتحاد والامتزاج، لتحقق للنفس في خاتمة المطاف السكون والطمأنينة، ولتسبح في بحر من الغبطة والسرور والرضا.

والمجال الحيوي لاتصال النفس بالنفس هو الصورة الجميلة والشكل البديع الآخذ بمجامع النفس، بوصفها جميعًا المرآة الصافية التي تنعكس على صفحتها صورة النفس الداخلية. فإذا تجلى للنفس من وراء ذلك الشعور الجمالي ما يجانس النفس

ويماثلها، امتلأت بالإعجاب وغمرها الاستحسان، فتصفو عندئذ وتتسع أمامها آفاق الحياة رحبة، وتتلهف للاتصال بالمحبوب والارتباط به ارتباطًا وثيقًا محكمًا لا تنفك عراه أبد الدهر.

ويُرجع ابن حزم مغزى كون الصورة الجميلة الحسنة عنصراً موصلاً بين النفسين، وينتهي دورها عند حد الاقتران إلى النفس ذاتها، وذلك لأن النفس بحكم لطافتها ورقتها أجمل ما في البدن، ومن ثم فهي «حسنة تولع بكل شيء حسن، وتميل دومًا إلى الصورة الجميلة المتقنة، فإذا رأت بعضها تثبتت فيه، فإن ميزت وراءها شيئًا من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية»(2).

أما إذا اقتصر تعلق النفس على الصورة الجميلة والشكل الجذاب، أو إذا لم تهتد النفس من ورائهما إلى ما يشاكلها ويجانسها فتستحسنه، لا يتجاوز حبها في الغالب الأعم الصورة الحسنة، وتلك هي الشهوة المحض، لأن الحب - كما بينا - ثمرة طيبة من ثمار التوافق النفسي، وانجذاب الشبيه إلى شبيهه، وشوق المثيل إلى مثيله، وبانعدام ذلك العنصر ينقلب التعلق بالمحبوب إلى غرض من الأغراض دافعه الأول إشباع النفس من الصورة الجميلة، وارتواء البدن من جمالها الأخاذ، ثم يضمحل وينزوي تدريجيًّا حتى لا يبقى منه في النفس شيء، وأخيراً يتلاشى تمامًا كما يتلاشى كل عارض وطارئ.

وفي حالة أخرى قد تقع العين على الصورة الجميلة الحسنة، ويتم اتصال النفس بالنفس، ثم تتوقف حركة النفس، فلا يكون هناك ميل ولا انجذاب، وبالتالي لم يتحقق ما هو متوقع وطبيعي، وليس لهذا إلاّ معنى واحد وهو أن النفس ربما كانت «مكتنفة ببعض الأعراض الساترة، والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية، فلم تحس أو تشعر بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي، ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة، ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشاركها ويجانسها في المجاورة، طالبة له، قاصدة إليه، باحثة عنه لملاقاته، جاذبة له لو أمكنها»(3).

وشبه ابن حزم ذلك الدافع الطبيعي للملاقاة، والانجذاب الغريزي المحسوس للامتزاج بين النفسين بقوة جذب المغنطيس للحديد، «فقوة المغناطيس المتصلة بقوة

الحديد لـم تبلغ من تحكمها ولا من تصفيتها أن تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها، كما أن قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس، تطلب ما يشبهها، وتنهض نحوه بالطبع والضرورة. وبالاختيار والتعمد، ومتى ما أمسك الواحد منا بالحديد لم ينجذب، إذ لم يبلغ من قوته مغالبة الممسك له مما هو أقوى منه، ومتى كثرت أجزاء الحديد استغل بعضها ببعض واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها، فمتى عظم جرم المغناطيس ووازت قواه جميع قوى جرم الحديد، عادت إلى طبعها المعهود»[4].

وعلى أي حال فإن الحب الصافي النبيل المبرأ من كل ضروب الأعراض الزائلة وسائر ما يتوارى بانقضاء بواعثه وأسبابه هو الذي يتغلغل في النفس ويسري فيها سريان الروح في البدن، وهو وحده الذي يرسخ في أعماق النفس كخبرةٍ معيشةٍ لا تسعف صاحبها اللغة لوصفها أو التعبير عنها، وكتجربة خاصة شديدة في خصوصيتها لا تهرم بتعاقب الأيام وكر الدهور، ولا تغيب عن الذاكرة مهما اشتدت بالمحب الأزمات وتتالت عليه المصائب، وإذا استعاد المحب في لحظة من لحظات الصفاء، ما سلف من ماضيه المفعم بالحيوية والمليء بالفرح والسرور تحركت نفسه واهتزت كأنها تريد الانسلال من البدن والتحرر من قيوده وأغلاله. وقد تنبه ابن حزم إلى هذه الحقيقة عند من عرف من أهل زمانه فعبر عنها بقوله:

«وإنك لتجد الإنسان السالي يرغمه، وذا السن المتناهية، إذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا، واعتاد الطرب، واهتاج له الحنين، ولا يعرض في شيء من هذه الأجناس المذكورة من شغل البال والخبل والوسواس وتبدل الغرائز المركبة، واستحالة السجايا المطبوعة والنحول والزفير وسائر دلائل الشجا ما يعرض في الحب»[5].

مراتب الحبّ

لا يعدو ميل النفس ونزوعها إلى ما يشاكلها ويجانسها عن كونه حالة اتجهت فيها النفس إلى صورة بعينها قد استحسنتها وعدلت عمن سواها من الصور والأشكال، ثم تحركت نحوها بعامل الانجذاب الغرزي تحركًا لا يفسر مهما بلغت قوته

وشدته في الجذب إلا على أنه رغبة واشتياق للتوحد بالمشابه، وخاطر وتخيل للانصهار والامتزاج بالمشاكل، وقد يقصر الميل وقد يطول، وقد يقوى ويضعف تبعًا لما يتراءى للنفس ولما تحس به نحو من استحسنته وشدت إلى جمال صورته وشكله.

فإذا قوي الميل وطال عن معدله المألوف وثبت على حالة واحدة، تحول إلى مودة، والمودة هي الأخرى ميل لكنه ميل يتضمن معنى الحب، بل هي ميل يقتضي المحبة المجردة. بيد أن المحبة فيها ليست مطلقة وإنما مقترنة دومًا بالتمني، حيث تود النفس لو أمكنها الاستحواذ على ما يماثلها ويشاكلها، وبهذا الاقتران ظهر الفرق بين المحبة والتمني معنى ولفظًا، فعدت كما يقول ابن داود «سبب الإرادة، فمن ودّ إنسانًا ودّ أن يكون له خلاًّ، وودّ أن يكون له ملكًا»[6].

ومن هنا اعتبرت المحبة من قبل الإرادة، إذ تتشكل في مجموعها من قوى نفسية متعددة تدور أغلبها حول الاستئثار بالمحبوب والثبات على حبه والإخلاص له، وعدم الاشتغال بسواه، ودوام الشوق واللهف إليه في حالتي الحضور والغياب، والشعور المستمر بالحاجة إليه، والانقباض والحزن لغيابه، والانقياد إليه وعدم مخالفته، فإذا بقيت المحبة على هذه الحالة، وقويت صولتها وسلطانها على النفس تحولت إلى خُلة. والخُلة مرتبة تبلغ فيها المحبة حد الكمال والتمام، وخصت بهذا الاسم وحده لأن النفس تشبعت بحب المحبوب ووصلت في حبه إلى حد التخلي عن سائر ما سواه، واستفظاع مخالطة غيره في حبه، وعدم قبول المشاركة فيه، عندئذ تسقط «السرائر بينه وبين محبوبه، فيصير مخللاً لسرائره ومطلعًا على ضمائره»[7].

والخُلة بدورها إذا اشتدت وطالت استحالت إلى هوى، والهوى مرتبة تطلق على «انحطاط المحب في محاب محبوبه وفي التوصل إليه بغير تمالك ولا ترتيب»[8] فالهوى إذاً شبه بالقوة الجامحة التي تستأثر بالنفس وتتسلط عليها، ثم توجهها وجهة واحدة لا تحيدً عنها، وتبلغ في شدتها وقوة اندفاعها حدًّا متطرفًا تجتاح فيه الوعي والشعور فتجعل من التحكم في النفس أمرًا مستعصيًا، فتقود المحب إلى التصرف بلا شعور، فتنعت في أغلب الأحيان نعوتًا مذمومة.

وباستمرار الهوى على وتيرة واحدة من الشدة، وبذلك الاندفاع اللاشعوري الذي يخشى من عواقبه على النفس من الانفلات والوقوع فيما لا يجوز، تكون النفس قد أسرفت في حبها ومحبتها، وأفرطت في تعلقها، وبلغت الغاية في شدة الحب، ولم يعد ما يشغلها سوى المحبوب، وذلك هو حد العشق. والعشق يعني عادة «ما فضل من الحب»[9] «أي ما فاض عن حد المحبة، وما زاد عن مقدار الحب، عندئذ يتحول العشق نفسه إلى قوة تكبح جماح النفس وتمنع المحب من «الانحطاط في هوى معشوقه إشفاقًا عليه وضنًّا به»[10] وذلك لأنه في واقع الحال ما هو إلاّ نفسه وما أحب سواها، فأرجعه عشقه إلى ذاته، واحتفظ له بمحبوبه، فالتصق به، وثبت على محبته ثباتًا به تحققت الوحدة، وتم التوحد والاندماج.

مظاهر الحبّ

أخذ تدرج ميل النفس إلى ما يجانسها ويشابهها - كما رأينا - أبعادًا تصاعدية شغلت فيه كل مرتبة امتدادًا زمانيًا به تقوى وتشتد ويستوي عودها. وبمقدار ما تستغرقه من وقت وعلى حسب طبيعتها في الشدة والعنف تتمحض مرتبة أخرى تختلف كيفًا ومعنى، إلى أن تبلغ النفس مرادها وغايتها بالاتحاد والاندماج، حينئذ يطغى على النفس الاعتقاد بالتحرر من كل ما يشدها بالبدن ويبقيها منكفئة على ذاتها، ومن ثم تصاغ حركتها وتنظم تنظيمًا لا أثر فيه لعنصر الثبات والاستقرار، فيغمر المحب الشعور وكأنه يتحكم وعلى نحو ما في الزمان.

هنا تنفك حركة المحب عن الواقع فيشعر بخفة لا مثيل لها، وبدوام الخفة واستمراريتها تصبح حركته زمانية خالصة تفقد فيها النفس وعيها بانسياب الزمان، وربما انمحى تماما الشعور بإيقاع الحياة وزخمها وتتابعها البطيء، حتى يخيل إليه أنه ليس متعلقاً ولا مرتبطًا بها، بل مشدودًا للمحبوب ومندمجًا فيه ومتوحدًا معه، فتنسجم حركتهما وتسير على وتيرة واحدة لا اختلال فيها ولا اضطراب.

إلا أن قناعة الإنسان المترسبة في أعماق النفس إلى حد اليقين من كون المشاكلة بينهما ليست تامة، والاتصال بينهما هو ثمرة طبيعية لشدة ميلهما وقوته، والانفصال بينهما حقيقي حتمته الضرورة الحياتية، يلجئ النفس ويكرهها للتراجع مسببة في

تقهقرها تغيرات جذرية في طبيعتها تتراوح ما بين الانبساط الشديد، والانزعاج الزائد عن الحد، وسرعة التقلب والاضطراب بسبب وبغير سبب.

وما يطفو على سطح الوجود الخارجي من هذه الحالات المضطربة والمتناقضة يظهر بمعان متميزة وفريدة حتى غدت كالعلائم الخاصة لمعاناة كل محب ومحبوب، وتجربة لكل نفس ذاقت طعم الحب وعاشت في رحابه. ويمكن حصر تلك المظاهر على ما بينها من تفاوت في القوة والشدة في مظهرين:

أولهما: الانبساط الشديد

إن شعور المحب الطاغي بالارتياح إلى محبوبه، وانشراح صدره له، وسكونه إليه، يحدث في القلب حالة جمالية بالغة العذوبة والرقة ينشأ عنها انفعال يورث في النفس لذة فائقة وخفة بالغة الشدة، ونشاطًا لم تعهده من قبل، يطلق على مجموعها اسم الفرح، ثم يتجلى الفرح بكل هذه الخصائص كانفعال نفسي، وكحالة شعورية بمظاهر مختلفة في قوتها وفي امتدادها خارج النفس، نوجز فيما يلي أبرزها وأكثرها تعبيراً عن النفس:

* الإقبال على المحبوب والإسراع نحو المكان الذي يحل فيه، وتعمد القعود بقربه وملاصقته، وطرح الأشغال الشاغلة عنه، والاستهانة بكل ما يكون داعيًا إلى فراقه، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته، والتباطؤ عند الابتعاد والقيام عنه[11].

* الإنصات إليه في حديثه والحرص على التقاط كل كلمة يتلفظ بها، واستغراب كل ما يقوله ولو كان عن المحال وخرق العادات، وتصديقه وإن كذب، ومتابعته في أي وجه من وجوه تناول الحديث لا يبدي مللاً ولا استنكاراً[12].

* التعديل فيما ألف المحب وتعود من عادات، وتغيير ما استحال عنده بمرور الزمان إلى طبيعة ثابتة له، لكي توافق هوى المحبوب ومراده، إيثاراً لمرضاته وترغيبًا له في نفسه، وإظهاراً لمحاسنه، يقول ابن حزم عن المدى الذي يبلغه المحب في التحول: «فكم من بخيل جاد، وقطوب تطلّق، وجبان تشجع، وغليظ الطبع تطرب، وجاهل تأدب، وفقير تجمل، وذي سن تفتّى، وحصون تبذل، وناسك تفتك، ومصون تهتّك»[13].

* مراقبة المحبوب وتتبع حركاته، وعدم الغفلة عنه، ويصاحب تلك المراعاة الدقيقة، والملاحظة المتأنية حرص شديد على حفظ كل ما يصدر عنه من أفعال، والبحث عن أخباره جليلها وحقيرها، حتى يأتي البعض منهم بالعجائب، فترى البليد يصير ذكيًّا لبقًا، والغافل فطنًا حاذقًا ماهرًا لا يفوته شيء من شؤون محبوبه. ويساوق كل ذلك ارتياح فياض بالحبور لسماع اسم المحبوب، بل لا يرتاح لشيء ارتياحه لنغمات اسمه واصطكاكها بطبلة الأذن فيطرب له، ولو أمكنه الا يسمع غيره لما رضي بسواه بديلاً.

* ارتياع يحط بكلكله على المحب عند رؤية محبوبه بغتة وطلوعه عليه فجأة، أو بما هو أقل منهما كمواجهته له من غير تهيؤ ولا استعداد. وسبب ذلك كما يسوقه ابن قيم الجوزية «أن للمحبوب سلطانًا على نفس محبه أعظم من سلطان الرعية، فإذا رآه فجأة راعه ذلك كما يرتاع من يرى من يعظمه فجأة»[14].

* امتداد المحبة إلى ما يرتبط بهم المحبوب برابطة، ويقرب إليهم بصلة كأهله وأرحامه حتى يكونوا أحظى وأحب إليه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته[15]، وقد تمتد المحبة إلى كل ما يجتمع به المحبوب كداره وجيرانه، وأي محل يحط فيه رحاله، ويمكن أن تتسع لتشمل خدمه وما يستخدمه من أدوات، وما يفضله من ملابس وما يستعذبه من أطعمة وأشربة.

* إدامة تثبيت العين على المحبوب، وتتبعه بنظراته، متنقلاً كما يخبرنا ابن حزم بتنقله «وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس»[16] . والعين باب النفس المفتوح، والباحثة عن خفايا المحبوب، والمعبرة عن مكنون الحب، ولأجل ذلك فهي «أبلغ من اللسان في التعبير وفي الإعراب، لأن دلالتها حالية بغير اختيار صاحبها، ودلالة اللسان لفظية تابعة لقصده واختياره»[17].

ثانيهما: التقلّب

إن شدة انشغال النفس بالحب واشتغالها الدائب بالمحبوب يدفع بها إلى زيادة مطردة في الحركة والاضطراب وعدم التماسك، كما يرفع في الوقت نفسه من درجة حساسيتها ورهافة شعورها تجاه المحبوب، فتتوقع منه حدوث أي شيء وكل شيء، مما

يسبب للمحب انزعاجًا وقلقًا دائمين، وصراعًا متواصلاً لا يفتر، وشعورًا مؤلمًا بالضيق، وما ينعكس من هذه الحالات في الواقع المعيش يظهر للعيان كعلامات بارزة للحب وسمات مميزة للنفس العاشقة، نتناول فيما يلي أكثرها شيوعًا، أعني القاسم المشترك بين النفوس جميعًا.

يكثر بين المحبين كما يستفاد من ملاحظات ابن حزم[18] تهاجرها بغير معني، وتضادهما في القول تعمدًا، وخروج بعضهما على بعض في كل هين ويسير من الأمور، وتتبع كل ما يصدر أو يقع من الآخر، كلمة كانت أو إيماءة أو حركة ويتأولها على عكس معناها، وتوجيهها غير وجهتها، والتنقيب عن مغزاها ومراميها، واستعادتها كرة بعد أخرى لا يكل ولا يمل.

وقد يذهب بعد هذا كله إلى حد اتهام المحبوب في إخلاصه وصدقه فتنتابه الهواجس، وتتنازعه الأوهام، وتسيطر عليه الأفكار السوداء، ويتحدث ابن حزم عمّن هذا حاله فيقول:

«وإني لأعلم من كان أحسن ظنًا، وأوسعهم نفسًا، وأكثرها صبرًا، وأشدهم احتمالاً، وأرحبهم صدرًا، ثم لا يحتمل شيئًا ولا يقع له معه أيسر مخالفة حتى يبدي من التعديد فنونًا، ومن سوء الظن وجوهًا»[19].

ومن المعين نفسه الذي لا يكاد ينضب من الهواجس وسوء الظن، ينشب الخلاف بين المحبين ويبلغ في أحيان كثيرة مدى من الاتساع والضخامة ما لا يقدر معه على إصلاح ذات البين بينهما أحكم الحكماء، ولكنهما لا يلبثان حتى يعودا إلى أجمل الصحبة وتهدر المعاتبة، ويتلاشى الخلاف، كما لو كان سحابة صيف، وينغمس كل منهما في جو تسوده المضاحكة والمداعبة والألفة الحميمة، وقد يعودان مرة أخرى وبلا مقدمات إلى لون جديد من الاختلاف والمشاكسة، ثم يصفو ما بينهما، وهكذا يتكرر الخلاف مرة بعد أخرى.

أما الانزعاج الذي يكاد يقتلع النفس من جذورها لشدة تأثيره وقوة وقعه، فقد يعرض للمحبين كما خبره ابن حزم عند أحد أمرين:

- عند رجائه لقاء من يحب فيعرض عند ذلك حائل، فترى بعض من كان

محبوبه يعده الزيارة، جائيًا وذاهبًا لا يقر به القرار، ولا يثبت في مكان واحد، مقبلاً مدبرًا قد استخفه السرور بعد ركانة، وأشاطه بعد رزانة.

- عند حادث يحدث بينهما من عتاب لا تُدرى حقيقته إلا بالوصف، فعند ذلك يشتد القلق حتى توقف على الجلية، فإما أن يذهب تحمله إن رجا العفو، وإما أن يصير القلق حزنًا وأسفًا إن تخوف الهجر[20].

الوصـــــل

يتوق كل محب إلى الالتقاء والاجتماع بمحبوبه، وينعم بصحبته، ويسعد بقربه، ويأنس بجواره، وعلى امتداد زماني قد يطول ويقصر، تقترن أنفسهما اقترانًا تذوب فيه متناقضات الحياة وأكدارها، ويضمحل الشعور بالوقت ويتلاشى، يتبادلان خلاله ما وحد بينهما من حب ومحبة. وأطلق على تلك اللحظات البهيجة اسم الوصل لا بمعنى مجرد الاتصال بين النفسين، بل بمعنى الانقطاع التام عما سوى المحبوب، ومن هنا جاءت كمظهر لذلك الاقتران الذي يقضيانه في انسجام وتوافق حتى يخيل إليهما أن الزمان قد توقف عندهما، ويتوهمان أنه يمكن لتلك اللحظات أن تدوم إلى أبد الآبدين.

ولم يجد ابن حزم ما يعبر به عن مدلول الوصل كشأن خاص بالعشاق وحدهم سوى وصفه وصفًا لا يدرك حقيقته إلاّ من ذاق لذته وعاناه كتجربة حية، فقال:

«الوصل حظ رفيع، ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المجددة، والعيش السني، والسرور الدائم، ورحمة من الله عظيمة. ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه، والفرح الذي لا شائبة فيه ولا حزن معه، وكمال الأماني، ومنتهى الأراجى»[21].

والوصل هو وحده الذي تتقاصر دونه مباهج الحياة، ولا يضاهيه سرور الوجود وأفراحه ولذاته، وإذا قيست تلك كلها إليه فلا تخرج عن كونها بهرجات زائفة، ولذائذ مغشوشة، وذلك لأن مباهج النفس وأفراحها تنحصر كلها في الاتحاد بالمحبوب، وهي بالنسبة إلى النفس الحياة الحقيقية، وهنا يحدثنا ابن حزم عن تجربته الشخصية مع الوصل فيقول:

«ولقد جربت اللذات على تصرفها، وأدركت الحظوظ على اختلافها، فما للدنو من السلطان، ولا المال المستفاد، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة، ولا الأمن بعد الخوف، ولا التروّح على المال، من الموقع في النفس ما للوصل، لا سيما بعد طول امتناع، وحلول الهجر حتى يتأجج عليه الجوى، ويتوقد لهيب الشوق، وتتضرم نار الرجاء»[22].

ثم يتوسع ابن حزم قليلاً في بسط ما للنفس من ولع بالوصل يجعلها لا تشبع ولا ترتوي منه أبدًا، ولو امتلكت أمره لما حادت عنه مهما كلفها من مشقات، فيقول:

«وعني أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل، ولا زادني إلاّ ظمأ، ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى فما وجدتني إلا مستزيدًا، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسأمة ولا رهقتني فترة، ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أجد خاطري في فن من فنون الوصل إلاّ وجدته مقصرًا عن مرادي، وغير شاف وجدي، ولا قاض أقل لبانة من لباناتي، وجدتني كلما ازددت دنوًّا ازددت ولوعًا، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي»[23].

ومما يلازم الوصل ملازمة تامة ويوازيه في مباهجه ولذاته، ويحتل في النفس منزلة أثيرة الوعد، إما وعد زيارة المحب لمحبوبه، أو انتظار الوعد من المحب أن يزوره محبوبه[24]، وذلك لأن الوعد من المحبوب بمثابة إعلام بقرب نوال مطلوبه بالوصل، وهو بلا شك موجب إلى نفس ما يؤدي إليه الوصل من فرح وسرور، إذ هو على أقل تقدير وصل ولكن في مستقبل الأيام.

ولقد لمس ابن حزم من خلال مراقبته الدؤوبة لأحوال العشاق مفعول الوعد فقال حاكيًا عن بعضهم:

«وإني لأعرف من كان ممتحنًا بهوى في بعض المنازل المصاقبة، فكان يصل متى شاء بلا مانع، ولا سبيل إلى غير النظر والمحادثة زمانًا طويلاً، ليلاً متى أحب أو نهارًا، إلى أن ساعدته الأقدار بإجابة (وعد) ومكنته بإسعاد بعد يأسه لطول المدة، ولعهدي به قد كاد أن يختلط عقله فرحًا، وما كاد يتلاحق كلامه سرورًا»[25].

فإذا حل الوصل في نفوس المحبين تلك المنزلة الرفيعة والمكانة السامية، فإن الوقائع التي استمدت منه معانيه تكشف هي الأخرى عن أنه لحظة من لحظات العمر

قل نظيرها، وتظل راسخة في النفس ما بقي في البدن نبض الحياة، والواقعة التالية حكاها ابن حزم ضمن وقائع متنوعة قال فيها:

«حدثني ثقة من إخواني جليل من أهل البيوتات، أنه كان علق في صباه فتاة كانت في بعض دور آله، وكان ممنوعًا منها، فهام عقله بها، قال لي، فتنزهنا يومًا إلى بعض ضياعنا بالسهلة غربي قرطبة مع بعض أعمامي، فتمشينا في البساتين، وأبعدنا عن المنازل، وانبسطنا على الأنهار، إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يفي الجميع، فأمر عمي ببعض الأغطية فألقى عليّ، وأمرها بالاكتنان معي، فظن بها ما شئت من التمكن على عين الملأ وهم لا يشعرون، ويالك من جمع كخلاء، واحتفال كانفراد، فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبدًا.

ولعهدي به وهو يحدثني بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك، وهو يهتز فرحًا على بعد العهد وامتداد الزمان»[26].

أما إذا حيل بين المحبين وبين اللقاء، وحرم عليهما الاجتماع فلا مفر لهما من القناعة والاقتناع بما قسم وقدر لهما، والقناعة في ذاتها إذعان نفسي حصل نتيجة للحرمان من الوصل. بها تسكن النفس وتكف عن طلب مبتغاها، ومن ثم اعتبرت في حق المحبين حالة نفسية مانعة وحائلة بينهم، ومن هنا درج المحب على الاكتفاء بالنزر اليسير بما يصله بمحبوبه، ففيه يرى ابن حزم «تعللاً للنفس وشغلاً للرجاء وتجديدًا للمنى، وبعض الراحة»[27].

وتتفاوت درجات القناعة ومنازلها على قدر ما فيها من الكفاية والإشباع واليقين.

● فأعلاها الزيارة، وهي إتيان المحبوب حيث يقيم للسلام أو النظر أو لمجرد تبادل الحديث والمخاطبة، فإن تحقق المقصود فتلك أمنية الأماني، وان صُد عما يصبو إليه اكتفى بالزيارة، وبها ينقع ويرضى ولا يطمع إلى ما فوقها، إذ تحل في نفسه محل الوصل، ونسبة لسمو منزلة الزيارة وعلو مقامها في النفس كان بعض المحبين - كما يحكي ابن حزم - يقول لمحبوبه: «عدني بالزيارة واكذب»[28] اكتفاء منه بتسلية النفس بوعد الزيارة وان لم يكن هناك زيارة.

● وأوسطها القناعة بما دون الكفاية، كالنظر إلى جدران البيت التي تضم من يحب، والارتياح إلى مشاهدة من رأى محبوبه، والأنس بمن أقبل من بلاده، وكفرحته بامتلاك أدوات لامستها بشرته أو قدمتها يداه، وغيرها مما يشابهها، وجميعها طيبة الوقع على النفس يقول عنها ابن حزم:

«ما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعنبر، مرشوشة بماء الورد، وقد جمعت في أصلها بالمصطكى وبالشمع الأبيض المصفى، ولُفّت في تظاريف الوشي والخز وما أشبه ذلك، لتكون تذكرة عند البين أو الهجر، وأما تهادي المساويك بعد مضغها والمصطكى إثر استعمالها فكثير بين كل متحابين قد حظر عليهما اللقاء»[29].

● وأدناها قناعة بذكر المحبوب ودوام التفكر فيه، وما يتبعها من كثرة الهواجس وتزاحم الهموم، فإذا سكن الليل وارتخت الأعصاب، وهجعت العيون تراءى طيف المحبوب وشوهدت صورته في الخيال، فمن العشاق من يرضى ويسلم بأن مجيئه في المنام هو كالزيارة فيفرح ويبتهج، ومنهم من يسخط ويتبرم.

وتباين قناعة المحبين هنا مرجعها إلى تباين حالتهم مع المحبوب في اليقظة.

- فمنهم محب مهجور قد تطاول غمه، ثم رأى في نومه أن حبيبه قد وصله، فسر بذلك وفرح، ثم استيقظ فأسف، حيث علم أن ما كان فيه أماني النفس وحديثها.

- ومنهم محب مواصل مشفق من تغير يقع، وقد رأى في نومه أن حبيبه يهجره، فاهتم لذلك همًّا شديداً، ثم هب من نومه فعلم أن ذلك باطل وبعض وساوس الإشفاق.

- ومنهم محب داني الديار يرى أن التنائي قد فدحه، فيكترث ويوجل، ثم ينتبه فيذهب ما به ويعود فرحًا.

- ومنهم محب نائي المزار يرى أن المزار قد دنا، والمنازل قد تعاقبت فيرتاح ويأنس إلى فقد الأسى. ثم يقوم من نومه فيرى أن ذلك غير صحيح، فيعود إلى أشد ما كان فيه من الغم[30].

● وأسوأ مراتب القناعة أن «يرضى المحب بالمشاركة فيمن يحب»[31]، ولا ينحدر عادة إلى هذا الدرك المرذول، والمنزلة الوضيعة من الاكتفاء بالمحبوب إلا ميت القلب ساقط الهمة عديم المروءة فاقد الأنفة والغيرة، مع افتتان جارف بالمحبوب، وولع شديد به، واجتماع هذه الخصائص وامتزاجها ينتج عنه كما يرى ابن حزم:

«هذا الطبع الخسيس، وتولدت هذه الصفة الرذلة وقام منها هذا الفعل المقذور والقبيح، وإما رجل معه أقل همة وأيسر مروءة فهذا منه أبعد من الثريا، ولو مات حيًّا أو قطِّع حيًّا»[32].

الوفـــاء

إن ثبات المحب على حبه، وركونه إلى محبوبه، ثم قيامه على صيانة ما بينهما من محبة، ودوام رعايتها وإخلاصه له وعدم تحوله عنه، فيه من الإلزام والاستيثاق تمامًا كالذي بين كل متعاقدين ويجب فيه الوفاء وجوب من جمعتهما شروط مبرمة يبذل كلاهما جهد طاقته في الثبات عليها ومراعاتها، لا من قبيل العناد، وإنما بمقتضى أسباب داعية، وعلل موجبة.

غير أن وجوب الوفاء من المحبوب أنسب، والشروط في حقه ألزم، وذلك لأن المحب كما يؤكد ابن حزم:

«هو البادي باللصوق والتعريض لعقد الأذمة، والقاصد لتأكيد المودة والمستدعي صحة العشرة، والأول في عدد طلاب الأصفياء، والسابق في ابتغاء اللذة باكتساب الخلة، والمقيد نفسه بزمام المحبة، ومخيّر في القبول أو الترك، فإن قبل فغاية الرجاء، وإن أبى فغير مستحق للذم، وليس التعرض للوصل والإلحاح فيه، والتأني لكل ما يستجلب به من الموافقة، وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء في شيء، فحظَّ نفسه أراد الطالب، وفي سروره سعى، وله احتطب والحب يدعوه ويحدوه على ذلك، شاء أو أبى، وإنما يحمد الوفاء ممن يقدر على تركه»[33].

وأيًّا ما كان الأمر فهناك شروط ملزمة ومواثيق محكمة بين المحبين تقتضي الوفاء اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها نذكر منها:

- أن يحفظ المحب عهد محبوبه ويرعى غيبته، ويطوي شره، وينشر خيره ويغطي على عيوبه، ويحسّن أفعاله، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة، ويرضى بما حمله، ولا يكثر عليه بما ينفر منه.

- على المحبوب إن ساواه في المحبة مثل ذلك، وإن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلّفه الصعود إلى مرتبته، ولا له الاستشاطة عليه بأن يسومه الاستواء معه في درجته، وبحسبه منه حينئذ كتمان خبره، وألا يقابله بما يكره ولا يخيفه به»[34].

وكل من أزاح تلك الشروط والمواثيق جانبًا مفسدًا ما بينهما من مودة أحكمت عراها، فقد أخل بعهد يعد الوفاء فيه من أوجب الواجبات وألزمها، وكل ناقض للعهد ناكث بوعوده يعتبر في حكم الغادر، والغدر من قبيح الصفات ومذمومها.

والغدر كما يستفاد من تتبع ابن حزم[35] ومراقبته لأحوال المحبين يكثر حدوثه من المحبوب حتى استغرب منه الوفاء، وصدور القليل منه يوازي الكثير من سواه، ومن جازى غدره بغدر مثله فلا يدخل في حكم الغدر، ولا تلصق به نعوته القبيحة، ولكن جرى العرف على مقابلة غدر المحبوب بوفاء المحب، وأبسط صور هذا الوفاء هي:

«ترك مكافأة الأذى بمثله والكف عن سيء المعارضة بالفعل والقول، والتأني في جذّ حبل الصحبة ما أمكن، فإذا وقع اليأس واستحكم الغيظ حينئذ، فليكن ذكر ما سلف مانعًا من شفاء الغيظ فيما وقع، فرعي الأذمة حق وكيد على أهل العقول، والحنين إلى ما مضى، وألا ينسى ما قد فرغ منه، وفنيت مدته أثبت الدلائل على صحة الوفاء، وهذه الصفة حسنة جدا، وواجب استعمالها في كل وجه من وجوه معاملات الناس فيما بينهم، على أي حال كانت»[36].

أما أشنع صور الغدر، وأشدها إيلامًا للنفس فهي كما يرى ابن حزم «أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه، يستريح إليه بأسراره فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه، ويستأثر به دونه»[37] والواقعة التالية تصور جانبًا من تلك الشناعة والتي تلقي بظلها الكالح على جميع من شارك فيها، يقول عنها ابن حزم:

«حدثني القاضي يونس بن عبدالله، قال: أذكر في الصبا جارية كان يهواها فتى

من أهل الأدب من أبناء الملوك وتهواه، وكانا يتراسلان، وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتى من أترابه كان يصل إليها، فلما عرضت الجارية للبيع أراد الذي يحبها ابتياعها، فبادر الذي كان رسولاً فاشتراها، فدخل عليها يومًا فوجدها قد فتحت درجًا لها تطلب فيه بعض حوائجها فأتى إليها وجعل يفتش الدرج، فخرج إليه كتاب من ذلك الفتى الذي كان يهواها مضمخا بالغالية، مصُونًا مكرَّمًا فغضب وقال: من أين هذا؟، قالت: أنت سقته إلي. فقال: لعله محدث بعد ذلك الحين، فقالت: ما هو إلاّ من قديم تلك التي تعرف، فكأنما ألقمته حجرًا، فسقط في يديه وسكت[38].

الفـــــراق

إن الحب من حيث هو ثمرة طبيعية للمشاركة والمجانسة والمشابهة قد جمع في بوتقة واحدة بين محبين به توحدا، وفي رحابه اتفقا على المحبة والوئام، ومثلهما في ذلك مثل كل مجتمعين حول أمر مشترك بينهما، ومختلفان فيما عداه، لا بد أن يأتي عليهما زمان يفترقان فيه، وينفصل كل منهما عن الآخر طال عليهما هذا الزمان أو قصر.

ويتخذ افتراق المحبين وانفصالهما شكلين:

أولهما: الهجر

والهجر عادة ما يكون عن إرادة حرة ورغبة تامة، فيفترق المحبان فراقاً بلا بينونة واضحة، حيث يبتعد المحب عن محبوبه برضاه، ويعمل على تركه عامدًا، ولأجل ذلك عدت هذه المفارقة من مفسدات الحب، وآفة تعرض عليه من وقت لآخر، ونظرًا لوجود الشق الإرادي الاختياري في الهجر فغالبًا ما يكون للافتراق دوافع وأغراض تفرضه وتتحكم فيها. منها:

● هجر يتوقى فيه المحب نظرات المتطفلين وعيون الرقباء والعذل، فيبتعد عن محبوبه خوفاً عليه، وصيانة له من الأذى، وقد وصف ابن حزم هذا الفراق قائلاً:

«فحينئذ ترى الحبيب منحرفًا عن محبه، مقبلاً بالحديث على غيره، معرضًا بمعرض لئلا تلحق ظنته، أو تسبق استرابته، وترى المحب أيضًا كذلك، ولكن طبعه له

جاذب، ونفسه له معارضة بالرغم، فتراه حينئذ منحرفًا كمقبل، وساكنًا كناطق، وناظراً إلى جهة نفسه في غيرها»[39].

● هجر يتدلل فيه المحبوب، فيظهر لمحبه جرأة مفرطة على الفراق، وجسارة فائقة في الابتعاد عنه، وما يبطنه على النقيض منه، فما هو إذن في الواقع إلاّ تصنع وتكلف، ولا يتأتى إلاّ «عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه، واستحكام البصيرة في صحة عقده، فحينئذ يظهر المحبوب هجرانًا ليرى صبر صاحبه»[40]. ومثل هذا الهجر لا يلبث أن يضمحل بسرعة كما يضمحل كل أمر باطنه يخالف ظاهره مخالفة كاملة.

● هجر لجرم وقع من الحب وخطأ صدر عنه جعل المحبوب يعرض عنه في جفاء وغلظة، فإذا وصل ما انقطع بينهما، ولم يكن هناك حائل من تجاذب الحديث، «ابتدأ في الاعتذار والخضوع والتذلل، والإدلاء بحجته، فطوراً يدل ببراءته وطوراً يرد بالعفو ويستدعي المغفرة، ويقر بالذنب ولا ذنب، والمحبوب في كل ذلك ناظر إلى الأرض يسارقه اللحظ الخفي، وربما أدامه فيه، ثم يبسم مخفيًا لتبسمه، وذلك علامة الرضا، ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر، وتَقَبلِ القول، وذهبت آثار السخط، ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور، وختما أمرهما بالوَصل، وسقوط العتاب، وتفرقا على هذا»[41].

ولم يجد ابن حزم على طول تمرسه بمواقف الحياة المختلفة موقفًا جليلاً وصل فيه الاحترام والتذلل والخضوع منتهاه كالذي شاهده لمحب يقف بين يدي محبوبه فقال:

«وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء، وتحكم الوزراء، وانبساط مدبري الدول، فما رأيت أشد تبجحًا، ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده، وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان، وقد غمره السخط وغلب عليه الجفاء»[42].

ثم يروي ابن حزم ما مر به هو شخصيًا من موقف كهذا فقال:

«ولقد امتحنت الأمرين، وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد، وأنفذ من السيف لا أجيب إلى الدنية، ولا اساعد على الخضوع، وفي الثانية أذل من الرداء، وألين من القطن، أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع، وأتحلى بلساني، وأغوص على دقائق المعاني ببياني، وأفنن القول فنونًا، وأتصدى لكل ما يوجب الترضي»(43).

● هجر متولد عن خلق طبع عليه المحب، مثل سرعة السأم والضجر، وضيق النفس بكل ما يتخذ نمطًا واحدًا متكررًا يتحول بمضي الوقت إلى عادة تؤدى بلا تفكير ومن غير جهد، وما هذا طبعه هو «أسرع الناس محبة وأقلهم صبرًا على المحبوب وعلى المكروه والصد، وانقلابهم على الود على قدر تسرعهم إليه»(44).

ولم يصادف ابن حزم فيمن عرف من العشاق ممن طبع على الملل والضجر بالمحبوب مثل علي أبي محمد بن عامر الذي قال عنه:

«ما رأيت قط هذه الصفة أشد تغلبًا منها على أبي عامر محمد، فقد كان يرى الفتاة فلا يصبر عنها، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتي عليه حتى يملكها، ولو حال دون ذلك شوك القتاد، فإذا أيقن بتصيرها إليه عادت المحبة نفارًا، وذلك الأنس شرودًا، والقلق إليها قلقًا منها، ونزاعه نحوها نزاعًا عنها، وأنا أعرف واحدة منهن تسمى عفراء، عهدي بها لا تتستر بمحبته حيثما جلست ولا تجف دموعها، ولقد كان يخبرني عن نفسه أنه يمل اسمه فضلاً عن غيره»(45).

وبلا أدنى شك فإن صاحب هذا الطبع لا يصفو له حب، ولا تصح منه محبة، ولا يطول صبره على محبوب، ولا يرجى منه ود ولا بغض، ولأجل هذا يوجه ابن حزم نصيحة لمن امتحن بحب من غلب على طبعه وأخلاقه الملل يرشده فيها إلى خير السبل للتعامل معه، يقول فيها:

«يجب ألا يستفرغ عامة جهده في محبته، وأن يقيم اليأس من دوامه خصمًا لنفسه، فاذا لاحت له مخايل الملل قاطعه أيامًا حتى ينشط باله، ويبعد عنه ثم يعاوده، فربما دامت المودة مع هذا»(46).

● هجر كراهية وبغض يتجنب فيه المحبوب من يحبه ضاربًا عرض الحائط بكل مشاعره وأحاسيسه نحوه. وهذا هجر هو بالمصيبة أشبه، فلا ينفع معه رفق في الخطاب، ولا لين في المعاملة، ولم يبق أمام المحب من وسيلة يزيل بها ما علق بنفس المحبوب إلاّ ما دل عليه ابن حزم حيث قال:

«فمن دهي بهذه الداهية، فليتعمد ما يعرف أنه يستحسنه، ويجب أن يتجنب ما يدري أنه يكره، فربما عطفه ذلك عليه، إن كان المحبوب ممن يدري قدر الموافقة والرغبة فيه، وأما من لم يعلم قدر هذا فلا مطمع في استصرافه، بل حسناتك عنده ذنوب، فإن لم يقدر المرء على استصرافه فليتعمد النسيان، وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحرمان، ويسعى في نيل رغبته على أي وجه أمكنه»(47).

ثانيهما: البين

والبين ما يكون بغير رغبة من المحبين، ولا كسب لهما فيه، ولا يملكان إزاءه إرادة ولا مشيئة، به ينقطع عرى الوصل بينهما قطيعة دائمة أو مؤقتة، فلا عجب أن عد البين رديفًا للموت الذي لا يطمع عقبه في لقاء ولا يؤمل بعده في اجتماع. والبين على أقسام أبرزها:

● بين لفترة زمنية قصيرة تسبب على قصرها للمحبين هموما وأحزانًا لا تطاق، وربما اعترى بعضهم هلع وفزع يخشى عليهم منه، ولا نجاة لهم مما هم فيه إلاّ بالعودة إلى سابق عهدهما.

● بين يحرم فيه على المحب الالتقاء بمحبوبه، ويحظر على المحبوب أن يراه محبه، وهذا النوع من البين وإن كان قاصراً على الصد وحده إلاّ أنه في كل الأحوال بين حتى ولو كان المحبان في دار واحدة، إذ كل منهما بائن عن الآخر، وينجم عنه من الحزن والأسى شيء غير يسير، يقول عنه ابن حزم: «ولقد جربناه فكان مرًّا»(48).

● بينُ رحيل وتناء عن الديار، ثم لا مطمع في العودة ولا يقين في الرجوع، بل قد لا يحدث تلاق في مقبل الأيام، وهذا بلا ريب «الخطب الموجع، والهم المفظع، والحادث الأشنع، والداء الدوي، وأكثر ما يكون فيه الهلع إذا كان النائي هو المحبوب»(49).

أما الأوبة بعد هذا البين الذي يكاد اليأس فيه من اللقاء يقضي على المحبين ففيه كما لاحظ ابن حزم «روعة تبلغ ما لا حد وراءه، وربما قتلت»[50]، ثم يعقب قائلاً:

«وإني لأعلم من نأت دار محبوبه زمنًا، ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلاّ بقدر التسليم واستيفائه، حتى دعته نوى ثانية فكاد أن يهلك»[51].

● بين الوداع، أي لحظة تشيع المحب أو المحبوب عند الخروج من داره مودعًا له، وهذه اللحظات من اللحظات البالغة التأثير في النفوس والتي ترق فيها حتى القلوب القاسية، وتلين حتى الأفئدة الغلظ، وهو كما يرى ابن حزم[52] من المواقف الصعبة التي تفتضح فيه عزيمة كل ماضي العزائم، وتذهب قوة كل بصير، وتسكب كل عين جمود، ولو أن محباً مات لحظة الوداع لكان معذوراً، إذا تفكر فيما تحل به بعد ساعة من انقطاع الآمال، وحلول الأوجال، وتبدل السرور بالحزن.

ويصف ابن حزم ما شاهده من معاصريه لحظة الوداع قائلاً:

«وأعرف من أتى ليودع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات، فوقف على آثاره ساعة، وتردد على الموضع الذي كان فيه. ثم انصرف كئيبًا متغير اللون كاسف البال، فما كان أيام قلائل حتى اعتل ومات، ولقد رأيت من كان حبه مكنونًا، وبما يجد فيه مستترًا، حتى وقع حادث الفراق، فباح المكنون، وظهر الخفي»[53].

● بين الموت، وهو قاطع كل رجاء وأمل، وماحي كل مطمع، فلا حيلة معه إلاّ الصبر طوعًا أو كرهًا، وهو من أعظم ما يبتلى به المحبان، وهو الغم الذي يتجدد بتجدد الليل والنهار، ولا يدرك مرارة الفراق بالموت إلاّ من جربه، فها هو ابن حزم يحدثنا عن تجربته الشخصية فيقول:

«وعني أخبرك أني أحد من دهي بهذه الفادحة، وتعجلت له هذه المصيبة، وذلك أني كنت أشد الناس كلفًا، وأعظمهم حبًا بفتاة، كانت فيما خلا اسمها نُعْم، وكانت أمنية المتمني، وغاية الحسن خَلقًا وخُلقًا، موافقة لي، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومرُّ النهار، وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن، فلقد

أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي، ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وببعض أعضاء جسمي العزيزة علي، مسارعًا طائعًا، وما طاب لي عيش بعدها، ولا نسيت ذكرها، ولا أنست بسواها، ولقد عَفَّى حبي لها على كل ما قبله، وحرم ما كان بعده»[54].

وكنتيجة طبيعية لما مضى ذكره نخلص مع ابن حزم وبعد تحليله العميق لمظاهر الحب وسماته المختلفة إلى حقيقتين جوهريتين تحدثان وعلى نحو متكرر في التجربة الشخصية لكل محب ومحبوب:

أولاهما: أن الحب كعاطفة قد يخضع في مظاهره المتعددة وسماته الفريدة كغيره من ظواهر الحياة الإنسانية للشرح والتحليل، ولكنه يبقى في كل الأحوال خبرة وتجربة خاصة لصيقة بالنفس ولازمة لها، وتبلغ من شدة خصوصيتها وقوة لزومها درجة لا يمكن معها سبر غورها أو إدراك حقيقتها إلا لمن عايشها وانفعل بها، بحيث لا يقول من شدة خصوصيتها: أعرف أو أعلم، بل يقول أحب بكل ما في الحب من معاناة. وما تزخر به المعاناة من تجارب وخبرات انفعالية بالغة العذوبة والجمال، وتظل حية متقدة في النفس ما بقيت في البدن أنفاس تردد بالحياة.

وثانيتهما: أن نفس المحب ومهما بلغت بالحب من الاندماج والتوحد بالمحبوب إلا أن هناك حقيقة تبقى ثابتة لا تتزحزح، وهي أن الانفصال بين أنفسهما والذي فرضته الضرورة الحياتية ليستقل كل منهما بوجوده قد رفع من شدة حساسية النفس تجاه المحبوب إلى مدى تغيرت فيه طبيعتها تغيراً يظهر بجلاء في سرعة تقلبها وعدم ثباتها على حالة واحدة، ومن ثم تظل دوما متأرجحة ما بين الفرح الزائد عن الحد من تملك المحبوب والاستئثار به دون العالمين، وبين الانزعاج والاضطراب الذي يكاد ينتزع النفس خوفًا وارتياعًا من فقده أو فراقه. وما يطفو في الظاهر وترصده كل عين من هذه الحالات المتناقضة هو من العلائم المميزة للنفس العاشقة.

وتأسيسًا على ذلك لم يبق للنفوس المتحابة إلاّ مجرد الاقتران المؤقت لفترة زمانية محددة تتصل فيها النفس بالنفس اتصالاً أشبه بالتوحد والاندماج، ينمحي فيه الشعور بالزمن، ويذوب فيه الإحساس بإيقاع الحياة، إلا أنها تبقى في كل الحالات اتحاداً وتوحداً لا يدرك حقيقته أو يفهم معناه إلاّ من عاشه كتجربة شخصية.

الهوامش والمراجع

(1) أبوالفتوح عبدالرحمن بن الجوزي: **ذم الهوى**، تحقيق مصطفى عبدالواحد، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1962، ص 398.

(2) ابن حزم الأندلسي، أبومحمد علي بن سعيد: **طوق الحمامة في الألفة والألاف**، تحقيق د. الطاهر أحمد مكي، الطبعة الرابعة، القاهرة: دار المعارف، 1985، ص 24.

(3) طوق الحمامة، ص 22، 23.

(4) طوق الحمامة، ص 24.

(5) طوق الحمامة، ص 22.

(6 و7) أبوبكر محمد بن أبي سليمان داود الأصفهاني: **كتاب الزهرة**، تحقيق د. لويس نيكل البوهيمي، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، 1932، ص 19.

(8) كتاب الزهرة، ص 20.

(9) ذم الهوى، ص 294.

(10) كتاب الزهرة، ص 21.

(11 و12) طوق الحمامة، ص 27

(13) طوق الحمامة، ص 28.

(14) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر: **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، تحقيق صابر يوسف، القاهرة: مكتبة الجامعة، 1973، ص 273.

(15) طوق الحمامة، ص 32.

(16) طوق الحمامة، 27.

(17) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص 262.

(18) طوق الحمامة، ص 29.

(19) طوق الحمامة، ص 34.

(20) طوق الحمامة، ص 32.

(21 و22) طوق الحمامة، ص 90.

(23) طوق الحمامة، ص 92، 93.

(24 و25) طوق الحمامة، ص 91.

(26) طوق الحمامة، ص 96.

(27 و28 و29) طوق الحمامة، ص 129، 130.

(30) طوق الحمامة، 132 -131.

(31 و32) طوق الحمامة، ص 136.

(33 و34) طوق الحمامة، ص 112.

(35) طوق الحمامة، ص 115.

(36) طوق الحمامة، ص 110.

(37) طوق الحمامة، ص 115.

(38) طوق الحمامة، ص 116.

(39) طوق الحمامة، ص 98.

(40) طوق الحمامة، ص 100.

(41 و42 و43) طوق الحمامة، ص 101، 102

(44 و45 و46) طوق الحمامة، ص 104، 105.

(47) طوق الحمامة، ص 107.

(48) طوق الحمامة، ص 117.

(49) طوق الحمامة، ص 119.

(50 و51) طوق الحمامة، ص 120.

(52) طوق الحمامة، ص 121.

(53) طوق الحمامة، ص 122، 123.

(54) طوق الحمامة، 124.

❋ ❋ ❋